عبد الرحمن الأخضري
رائد التصوف السلفي في الجزائر خلال الفترة العثمانية

د. حنيفي هلايلي
جامعة بلعباس

في عصر ساد فيه التصوف كل شيء في الحياة تقريبا، لا يمكن أن يكون إنتاج علمائه إلا مصبوغا بالزهد و الموعظة و الالتزام بمبادئ المتصوفين و الزهاد .ومن هؤلاء شخصية عبد الرحمان الأخضري الذي يعتبر علما من أعلام التراث الجزائري بداية العهد العثماني.

أولا : حياته

ولد الشيخ عبد الرحمن بن محمد الصغير بن محمد عامر الأخضري السلمي في أوائل العهد العثماني في بنطيوس من قرى نواحي بسكرة، يقول عنها البكري: "وبسكرة مدينة كبيرة، كثيرة النخيل والزيتون وأصناف الثمار...ومن مدنها مدينة طولقة ومدينة مليلي، ومدينة بنطيوس وهي بناها الأول"[1].

وفي بسكرة نما وشبّ الأخضري وأخذ العلم عن والده وشقيقه الأكبر. كان والده من علماء عصره. فألف والده حاشية على خليل وكتابا في التصوف. وتذكر بعض الروايات أن الأخضري قد طلب العلم بقسنطينة وأخذ على الشيخ عمر الوزان[2]. كما طلب العلم بتونس وأخذ على مشايخ جامع

---

[1] – إسماعيل العربي، المدن المغربية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص ص 182–183.

[2] عن حياة عمر الوزان، أنظر:

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998، ج4، ص ص 379–384.

الزيتونة. وتشير دراسات معظم المترجمين لحياة الأخضري أنه عاش ثلاثا وثلاثين سنة فقط (920هـ-1514م/953هـ/1546م)[3]. وإنه لم يتزوج في حياته.

ولكن بعض الباحثين شك في ذلك لأن هناك عائلتين، واحدة في بنطيوس، والأخرى في المقران، تدعيان الانحدار من نسل الأخضري، ومن جهة أخرى فإن نضجه العلمي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان الأخضري قد تقدم في السن ومهما كان الأمر فقد قضى الأخضري حياته في التعليم والكتابة في زاوية عائلته في بنطيوس، وتخرج على يديه تلاميذ كثيرون. وكان يذهب في الصيف إلى الهضاب العليا (سطيف) للابتراد فأدركته الوفاة في أحد الأصياف في كجال سنة 953هـ/1546م، ثم نقل ودفن ببنطيوس بالقرب من ضريح والده[4].

كان بايات قسنطينة يعفون عددا من الزوايا والأضرحة من دفع الضرائب، ومنها بايات قسنطينة العثمانيين حيث كانوا يعفون زاوية الأخضري

---

[3]- جاء في دراسة للشيخ المهدي البوعبدلي: "أن الأخضري عاش إلى سنة 981هـ/1575م استدلالا ببيت في نظم الأخضري للأجرومية:

تم بحمد الله ما قصدنا من نظم هذه التي أردنا

في عام إحدى وثمانين سنة من بعد تسعمائة مستحسنة

راجع:

المهدي البوعبدلي، "عبد الرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر" مجلة الأصالة، العدد 53، الجزائر، صفر-محرم، 1398، جانفي 1978، ص ص 21-35.

ولكن أبو القاسم سعد الله، أكد بأن الاستدلال ضعيف لأن البيت قد يكون فيه تصحيف من النساخ بقراءة "إحدى وثمانين بدل" إحدى وثلاثين.

أنظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص 501، الهامش: (1)"

[4]- حول حياة الشيخ عبد الرحمن الأخضري، يرجى العودة إلى الكتب التالية:

- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص ص 500-503.
- لوسياني، السلم المرونق، الجزائر 1921.
- المهدي البوعبدلي، المقال السابق.

وعائلته من دفع الضرائب لمقامه الديني. وقد نصت إحدى الوثائق على ضرورة احترام الناس لعائلته ونسله، وجميع هذه الوثائق ممهورة بخواتم بايات قسنطينة[5].

ثانيا: مؤلفاته العلمية

لقد اعتنى عبد الرحمن الأخضري بمختلف العلوم، شرعية وعقلية، ولكننا لم نعرف عنه أنه حاول تفسير القرآن الكريم. وهكذا ينتهي القرن العاشر، 16م، دون أن نسجل تأليفا واحداً في تفسير القرآن الكريم في الجزائر أوائل العهد العثماني[6].

وينوه المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله، بالقيمة العلمية للعلامة الأخضري، خلال القرن السادس عشر حيث كتب يقول: "فإذا عدنا إلى دراسة الإنتاج العلمي وجدنا منه كمية ضئيلة خلال العهد العثماني، ولو لا بعض الأعمال التي كتبها عبد الرحمن الأخضري وسحنون بن عثمان[7] الونشريسي[8] وابن حمادوش[9] لخلا هذا العهد أو كاد من التأليف في العلوم

[5]- لوسياني، ترجمة (السلم المرونق) للأخضري، ص 15.

وقد أشار المترجم إلى وجود سبع وثائق في نفس الموضوع، آخرها مكتوبة سنة 1246هـ/1830م، وعليها خاتم الحاج أحمد (1826-1837) آخر بايات قسنطينة.

[6]- أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج 2، ص 16.

[7]- هو أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي توفي عام 1211هـ/1796م تولى وظيفة الكتابة للباي محمد الكبير (1779-1796م).

[8]- أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، ولد حوالي 834هـ/1430م/ توفي 914هـ/1508م، ترك العديد من التصانيف جلها في أمور الفقه ومسائل الشريعة منها: مختصر أحكام البرزلي-إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك- المعيار المعرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب.

أنظر: ناصر الدين، سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1999، ص ص 277-285.

[9]- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، ولد بالجزائر حوالي 1110هـ/1695م، قام بعدة أسفار، وترك مصنفا في علم النبات والتداوي بالأعشاب عرف بكشف الرموز، وكتاب في الرحلة عرف بـ"لسان المقال في النباء عن النسب والحسب والحال".

الحسابية والفكرية ونحوها، ومع ذلك فإن هؤلاء كانوا يستمدون موادهم من تراث الحباك والسنوسي[10] وابن القنفذ..وكأن العقول في العهد العثماني قد تحجرت"[11].

ومما يلاحظ على حركة التأليف أن الجزائر في العهد العثماني تميزت بظاهرة إنتاج العلماء للشروح والحواشي والتقاييد والرسائل. ومن أشهر المؤلفين في هذه المرحلة عبد الرحمن الأخضري.

وإذا نظرنا إلى فقر الجزائر الثقافي خلال القرن العاشر(16م)، فسببه يعود إلى الهجرة المتواصلة للعلماء نتيجة عدم الاستقرار السياسي والغارات الأجنبية المتكررة على الجزائر، ولكن وجود العلماء في هذه المرحلة بالذات يعتبر ظاهرة إيجابية على حد تعبير سعد الله[12].

ومن أشهر علماء هذه الفترة محمد الكماد الأنصاري المشهور بالوزان، وهو من علماء قسنطينة، كرس حياته للتدريس، كما أسهم ببعض التآليف، وقد أرسلت بسكرة حسب بعض الروايات بعبد الرحمن الأخضري إلى هذا العالم المتبحر. لقد عرف الأخضري بمنظوماته في علوم شتى وبشروحه عليها والأمر الذي لفت إليه الأنظار بنبوغه في الحساب والفرائض والبيان. كانت أعمال عبد الرحمن الأخضري في المنطق والحساب محل درس وتعليق من بعده، فقد نظم عبد الرحمن الأخضري كتابه الجوهر المكنون في علمي البيان والمعاني ثم شرحه بنفسه وفاق فيه تلخيص المفتاح لجلال الدين القزويني، وتولى شرح الجوهر المكنون والتعليق عليه عدد من المشارقة أمثال أحمد الدمنهوري الذي

لمزيد من الاطلاع يرجى العودة إلى:

أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص ص 425-436.

[10] – يعتبر محمد بن محمد يوسف السنوسي من أكبر زهاد وعلماء الجزائر في القرن التاسع/15م. فقد جمع بين الإنتاج العلمي والسلوك الصوفي.

[11] – أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج2، ص 404.

[12] – نفسه، ج1، ص 385.

شرحه في القاهرة سنة 1892[13]. والظاهر أن العناية بالبلاغة كعلم قائم بذاته عند الجزائريين في الفترة العثمانية كانت ضعيفة، وأن اعتمادهم في التدريس كان على عمل عبد الرحمن الأخضري[14].

وقد نظم الأخضري الجوهر المكنون في صدف ثلاثة فنون أي حول المعاني والبيان والبديع، عام 950هـ وقد جاء في أوله:

الحمد لله البديع الهادي إلى بيان مهيع الرشاد.
أمد أرباب النهى ورسما شمس البيان في صدور العلماء.
فأبصروا معجزة القرآن واضحة بساطع البرهان.

قام بشرحه الشيخ محمد بن علي بن موسى الثغري الذي سمى شرحه "موضع السرّ المكنون على الجوهر المكنون"، وشرح الشيخ محمد بن الفكون حسبما أشار إليه الحاج أحمد بن مبارك القسنطيني في طالع حاشيته على الجوهر المكنون المسماة "نزهة العيون في بيان شرح الجوهر المكنون"، وهو في البلاغة وفنونها (البيان، المعاني، البديع)[15].

ومن آثار عبد الرحمن الأخضري أيضا (الدرة البيضاء في أحسن الفنون والأشياء)، تناول فيه علم الحساب والتركات والقسمة، في خمسمائة (500) بيت، كما قام المستشرق الفرنسي دومينيك لوسياني بترجمة الدرة البيضاء[16].

---

[13]- نفسه، ج2، ص ص 167-170.

[14]- قام أحمد الدمنهوري بشرح الجوهر وسمى شرحه: "تحلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون، وطبع بمصر عام 1892م مع شرح الأخضري."

[15]- أحمد بن المبارك (ت 1870م)، تولى التدريس في الكتانية بقسنطينة، وألف في علم البلاغة بوضع حاشية على شرح عبد الرحمن الأخضري، للمزيد راجع: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج8، ص 66.

[16]- دومينيك لوسياني، رجل إداري، ظل أكثر من عشرين سنة وهو يسير الشؤون الأهلية، تولى تفتيش البلديات ونشط الإدارة المدنية على حساب الإدارة العسكرية منذ 1890، وعمل مع ثلاثة من الحكام العامين هم ريفوال وجونار ولوتو، أما عمله الاستشراقي فيقوم على تشجيعه ومساهمته في لجنة ترجمة التراث الجزائري القديم.

ونظم عبد الرحمن الأخضري في علم الفلك كتابا بعنوان السراج، قام بشرحه سحنون بن عثمان الراشدي الونشريسي، وطبع بالقاهرة عام 1314هـ مع متن الأخضري، وقام بشرحه تلميذ عبد الرحمن الأخضري العلامة عبد العزيز بن أحمد بن مسلم الفارسي، ولم يقتصر عبد الرحمن الأخضري على ذلك بل قام بالتأليف في مجال الفقه على مذهب الإمام مالك، والكتيب واسع الانتشار ببلاد المغرب، قام الشيخ عبد اللطيف المسبح المرادسي بشرحه وسماه (عمدة البيان في معرفة فروض الأعيان على مذهب الإمام مالك) وكان هذا في سنة 1332هـ[17].

وأشار الدكتور أبو القاسم سعد الله أن للأخضري أرجوزة في طبيعة النفس كتبها سنة 944هـ تعد من مجهولات الأخضري. ذكر بأنها توجد في المتحف البريطاني ومكتبة ميونيخ بألمانيا، ولكنه أردفها بقوله: "ولعلها هي نفسها القصيدة القدسية" والتي تبلغ 357 بيتا[18].

وذكر الدكتور عمار الطالبي أن الأخضري له منظومة تسمى "أزهر المطالب في هيئة الأفلاك والكواكب" وهي لا تزال مخطوطة بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 17905[19]. كما له شرح في العقيدة الصغرى للسنوسي، توجد بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم 1426. وأشار الأستاذ عادل نويهض في المعجم (رسالة في التحذير من البدع) للأخضري[20].

أبو القاسم سعد الله، ج6، ص 171.

[17] – قوزي، مصمودي، العلامة الشيخ عبد الرحمن الأخضري: قبس من حياته ومسيرته العلمية، الجمعية الخلدونية بسكرة، ديسمبر 2004.

[18] – أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص 131، هامش رقم 1.

[19] – عمار، طالبي، "عبد الرحمن الأخضري حياته وأعماله"، مجلة العلوم الإنسانية، العدد الثاني، قسنطينة، رمضان 1405هـ/ماي 1987.

[20] – عادل، نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة، ط3، 1982، ص10.

والواقع أن للأخضري قصائد متنوعة منها في مدح النبي المختار (30 بيتاً)، مطلعها:

سرى طيف من أهوى فأرق ❁ وما كدت أنجو من فنائي وعبرتي مهجتي

أيا لائمي في الحب إنك ❁ كسائك لا تدري بشأن المحبة جاهل

وله قصيدة (نصيحة للشباب) مطلعها:

أوصيكم يا معشر ❁ عليكم بطاعة الرحمن الشباب[21]

وقد ذكر المهدي البوعبدلي أن الأخضري: "نظم السراج في الفلك" وهو ابن سبع عشر سنة، كما نظم "أزهار المطالب في علم الأسطركاب" وهو ابن عشرين سنة، مّا تآليفه في بقية المعارف، فهي تربو على الثلاثين، وقع الإقبال عليها من جامعات العالم الإسلامي كالأزهر والزيتونة والقيروين[22].

وفي النهاية أخلص إلى القول بأن أحمد الزكرطي المعروف بابركان كان يقرأ تلاميذه في تلمسان حوالي ثمانية علوم من:

1. رسالة أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي.
2. ألفية ابن مالك في النحو.
3. السلم المرونق في المنطق للأخضري.
4. حكم ابن عطاء الله في التصوف وكتابه إسقاط التدابير له.
5. التوحيد وعقائد السنوسي.
6. العلوم اللغوية كالبلاغة والمعاني بجوهرة الأخضري.
7. تفسير القرآن الكريم منها تفاسير الثعالبي والسيوطي.

---

[21]– فوزي، مصمودي، المرجع السابق.

[22]– المهدي البوعبدلي، المقال السابق، ص 25.

8. الحديث الشريف وخصوصا صحيح البخاري.

يتضح مما سبق ذكره أن مؤلفات عبد الرحمن الأخضري في مواد التدريس خلال الفترة العثمانية كان لها نصيب أوفر وهذا يدل على المكانة العلمية المرموقة التي وصل إليها فكر العلامة عبد الرحمن الأخضري، فكان موسوعة ومدرسة لزمانه ومن بعده.

ومن الواضح جداً أن عبد الرحمن الأخضري يحتل المرتبة الأولى خلال القرن السادس عشر، من حيث الذين جمعوا بين التأليف والتدريس في علم الحساب، فأرجوزته المسمى (الدرة البيضاء)، قد بقيت كتاب الأستاذ والطالب في المعاهد الإسلامية مدة قرون، وقد طبعت عدة مرات وكثرت شروحها[23].

ثالثا: المنطق والتصوف في كتابات الأخضري.

1. المنطق:

إنّ السبب الرئيسي في ولوج هذا الموضوع، كون المنطق في الفكر المغاربي، غير معروف بما فيه الكفاية، لا فقط عند عموم المثقفين، بل أيضا عند أغلبية الذين أرخوا للمنطق العربي الإسلامي بشكل عام. كم كانت دهشتنا كبيرة عند رجوعنا إلى كتب المنطق العربي الإسلامي حيث وجدنا مؤلفيها لا يعيرون للمنطق المغاربي أي اهتمام، ففي كتاب "تطور المنطق عند العرب" يعرض نيكولا ريشر قائمة بأسماء الناطقة عند العرب منذ الفارابي (ت950هـ) حتى عبد الرحمن الأخضري (ت 1575م)، أي منذ القرن التاسع الميلادي حتى القرن السادس عشر، فاحتوت قائمته على 166 منطقيا عربيا إسلاميا، من بينهم 14 مفكراً أندلسيا كتبوا في المنطق، ومفكرا واحداً من المغرب الأدنى وهو عبد الرحمن بن خلدون وأربعة مفكرين من المغرب الأوسط (الجزائر) وهم: محمد بن

---

[23]- أبو القاسم سعد الله، أراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005، ج3، ص ص 188-189.

أحمد التلمساني (ت 1379م)، ومحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني (ت 1438م)، وأبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت 1488م)، وعبد الرحمن الأخضري[24].

وفي كتاب "منطق العرب"[25]، يعتبر عادل فاخوري الجزائريين السنوسي والأخضري شراح ولا أصالة لهم في إنتاجهم الفكري.

من المعروف أن المنطق في الفكر العربي الإسلامي بشكل عام مرّ بمجموعة من المراحل نجملها فيما يلي:

- فترة الترجمة والتي دامت طيلة القرن 9م.
- فترة الشروح الأولى، ودامت خلال القرن 10م، وفي هذه الفترة نشأت مدرسة بغداد التي تمركز فيها المنطق العربي. أما الأندلس فقد عرف في نفس المرحلة أكفاء من الحمار (ت 1010م)، وابن بدر الأندلسي (ت 1020م)، وابن البغونش الطليطلي (ت 1052م)، في حين كانت بلاد المغرب لا تولي اهتماما للدراسات الفلسفية والمنطقية حسب نيكولا ريشر نفسه[26].
- فترة ابن سينا، والتي دامت كل القرن 11م، وفيها ظهر ابن حزم الأندلسي (ت 1064م)، والدرامي الأندلسي (ت 1070م).
- الفترة الأندلسية، والمتمثلة في القرن 12م، وفيها ظهر ابن رشد (ت 1098م)، وابن أبي الصلت (ت 1134م)، وابن باجة (ت 1138م).
- الفترة الذهبية في تاريخ المنطق العربي الإسلامي، وهي المرحلة التي تمثلت في القرن 13م، فكثرت علمان المنطق وبرزت عدة مؤلفات في المنطق، حيث انفصل المنطق عن الطب، وارتبط بعلم الكلام وبالموضوعات العلمية،

---

[24]- ريشر، نيكولا، تطور المنطق عند العرب (ترجمة: محمد مهران)، بيروت: دار المعارف 1985.

[25]- عادل فاخوري، منطق العرب (من وجهة نظر المنطق الحديث)، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1980.

[26]- ريشر نيكولا، المرجع السابق، ص 163.

وبخاصة الرياضيات والفلك: كما ننوه بالعالمين الأندلسيين ابن همّوس (ت 1223م)، وابن سبعين (ت 1270م)، ويمكن تفسير هذا التراجع بالعداء الشعبي والديني للمنطق بالأندلس.

في حين ازدهر المنطق في المشرق العربي ووصل قمة تطوره مع الخونجي (ت 1249م)، والأرموي (ت 1283م)، والأبهري (ت 1265م)، والقزويني الكاتبي (ت 1292م)، وابن تيمية (1328م)

- فترة الجمود والتي تبدأ مع أوائل القرن 14م، حيث توقف التعامل المباشر، مع النصوص الأرسطية، وأصبح العلماء والدارسون يلتمسون المنطق من المختصرات والشروح المحلية، وهي ظاهرة سبق لابن خلدون أن اشتكى منها في مقدمته[27].

وانطلاقا من هذه الفترة لم يبق أي إبداع في المنطق العربي الإسلامي حسب ريشر وفاخوري، وغيرهما، من مؤرخي المنطق العربي، وأصبح المهتمون بالمنطق مجرد معلمين يشرحون النصوص ويضعون الحواشي، وفي هذه الفترة وبعدها، سيطرت على دارسي ومدرسي المنطق أمهات الكتب التالية:

مطلع الأنوار للأرموزي (1198-1283م).

الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية للقزويني الكتابي (1277م).

الرسالة الشمسية للتحتاني (1365م).

كتاب أسياغوجي في المنطق للأجهري (1265م).

وقد شرح محمد بن يوسف السنوسي (1428-1490م)، كتاب أسياغوجي.

مختصر في علم المنطق للسنوسي (1490م)، وعليه شروح

مختلفة، أهمها "شرح المختصر في علم المنطق" للسنوسي

27- أنظر فصل علم المنطق،

عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ط7، بيروت: دار القلم، 1409هـ/1989م، ص ص 489-492.

نفسه، و"نفائس الدرر في حواشي المختصر" لابن مسعود اليوسي (1102هـ).

حسب الدراسات التي مدتنا بها مصادر تاريخ الفكر المغاربي لم يظهر مؤلف في المنطق بالبلاد المغاربية على عهد المرابطين (1070-1147م)، ففي هذا العصر، اهتم الناس بالعلوم الدينية واللغوية فقط، وفي العهد الموحدي (1147-1269م)، ظهرت مؤلفات مغاربية وأندلسية في المنطق على شكل مداخل من بينها:

"أسهل الطرق إلى فهم المنطق" للماكري.

"الضروري في المنطق" لابن رشد (1198م).

"مقال في صناعة المنطق" لابن ميمون (1204م)[28].

أما القرن الرابع عشر الميلادي، الذي يعتبره مؤرخو المنطق العربي الإسلامي فترة جمود، فيمثل بالنسبة لبلاد المغرب فترة ازدهار في ميدان العلوم العقلية، ففي هذه الفترة ظهر كتاب: "الكليات في المنطق" لابن البناء المراكشي (1379م)، و"شرح لمختصر الخونجي" لابن مرزوق التلمساني (1379م)، و"ملخص في المنطق" لابن خلدون (1406م).

وإذا حكمنا على إنتاج الجزائريين في علم المنطق فإنه إنتاج قليل باستثناء عمل القرن التاسع الهجري (15م)، مثال ابن القنفد والسنوسي والمغيلي، ويرجع السبب في نقص هذا العلم الهام إلى سببين رئيسيين:

الأول: صعوبة هذا العلم، لأنه يتطلب الاطلاع الواسع على كتابات الأولين والأجانب ونقدها.

---

[28]- للمزيد راجع:

أبو الحجاج يوسف بن محمد المكلاتي، لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول، (تحقيق: فوقية حسين محمود)، القاهرة: دار الأنصار، 1977.

الثاني: طغيان علم التصوف على الجزائريين وهذا العلم الذي اكتفى أصحابه بعلوم الباطن واعتبار علم المنطق من علوم الظاهر التي قد تؤدي إلى الكفر والإلحاد والزندقة.

ويعتبر الأخضري أبرز من ألف في المنطق خلال العهد العثماني فقد جذب تأليفه اهتمام العلماء الآخرين لشرح ودراسة عمله في المنطق. وقد ظلت أعمال الأخضري في المنطق حية ومدروسة إلى القرن العشرين، وكان عمله موضع اهتمام علماء المسلمين في المغرب والمشرق.

ومن الواضح أن الأخضري كان يجيد علم المنطق، ونهج في اختصار قواعده وتوضيحه في متنه المعروف بأرجوزة السلم المرونق، والذي يضم 143 بيتا، ومطلع السلم[29].

الحمـــد لله الذي أخرجـــا ❋ نتائج الـــفكر لأرباب الحجـــا

وحط عنهم من سما الـــعقل ❋ كل حجاب من سحاب الجهل

حتى بدت لهم شموس المعرفة ❋ رأوا مـــخدراتها منكشفة.

وقام حسن بن يوسف الفاسي الزياني (1614م)، بشرح الأخضري، وشرح سلم الأخضري لمحمد بن مدين السوسي (1707)، وشرح آخر لسلم الأخضري لأبي بكر الغربي السلاوي (1726م) وشرح السلم المرونق للقويسني وهو أشهر الكتب المتداولة بمدارس سوسة[30].

---

[29]- نظم الأخضري في علم المنطق وعمره (21 سنة)، وقد طبع السلم المرونق بمصر طباعة حجرته ما بين (1272هـ/1276هـ) ومن أواخر من ترجمه ودرسه وقدمه للقراء الجانب، المستشرق الفرنسي لوسياني سنة 1921. وهو مخطوط موجود بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم 2062.

أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 149-150.

[30] عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط3، 1975، ص 100-103.

وهكذا نجد أنفسنا أمام عمل نادر فرض نفسه على الدراسات المنطقية حوالي أربعة قرون. ومن المعروف أن مادة المنطق في شكلها الأرسطي على الأقل، مادة داخلية بالنسبة للعالم العربي الإسلامي، أضف إلى ذلك أن المنطق، باعتباره علما وضعيا، يشوش على العقائد الإيمانية الأمر الذي جعل الفقهاء وعامة الناس ينفرون من المنطق ويصدرون فتاوى تصل أحيانا إلى حد تحريمه.

وهكذا نخلص إلى القول بأن دور عبد الرحمن الأخضري في تطوير المنطق العربي الإسلامي مكانة حاسمة في هذا العلم سواء على مستوى المضمون أو على مستوى تداول العلم كتقنية. لقد ساهم عبد الرحمن الأخضري مساهمة لا يستهان بها في رد الاعتبار إلى علم المنطق وإلى كل العلوم العقلية الأخرى، وذلك بإلحاحه على إعمال العقل والاهتمام بعلومه واعتبار المنطق مادة مكملة لعلوم الدين، وليست مادة معارضة لها.

2. التصوف:

التصوّف ظاهرة دينية، ومفهوم معين للإسلام، عرفه التاريخ الإسلامي، قوامه فلسفة روحية ترتكز على الذكر، والاعتكاف وفق أساليب تربوية مرهقة للنفس لحملها على الطاعة حتى تزكو وترتقي إلى مراتب عليا من الإيمان.

ولئن ذهب بعض المتصوفة إلى أنّ كبار الصحابة وحتى التابعين كانوا من أهل التصوّف -ليثبتوا أنه ليس دخيلا على الإسلام. فإن الراجح أنه نشأ في مطلع عصر الدولة العباسية، ليس فقط لاتساع الفتوحات، وركون المسلمين إلى حياة الترف والبذخ مما ولّد نفورا من تلك الحياة المادية والاتجاه نحو الزهد والانقطاع للعبادة[31]. وإنما كذلك لأسباب أخرى أهمها: امتزاج المسلمين بأجناس ممن أسلم من البلاد الشرقية، وهم أناس حديثو العهد بالإسلام، مع ما

---

[31]- الأزهر بن أحمد الكراوي، الطرق الصوفية بصفاقس مواردها الاقتصادية ومعالمها الأثرية خلال القرنين الثاني عشر هجري الثامن والتاسع عشر ميلادي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، 1984، ج1، ص16.

يحملونه من رواسب حضارية -هندية وفارسية- جعلت الناحية السلوكية وحتى العقائدية- لديهم غير منطبعة كليا بطابع الإسلام، فهي فترة تقلّص فيها عدد ذلك النمط الرائع من الصحابة، وحتى من التابعين الذين نكلت بالبعض منهم الدولة العباسية.

إن الاستبداد السياسي وعجز الكثيرين عن التصدي له، دفع البعض إلى مؤاثرة السلامة باللجوء إلى العزلة والانزواء، والتفرّغ لإصلاح النفس وهجرة المجتمع الفاسد، والتركيز على التأمل والملاحظة، حتى تشق النفس وتصل درجة الإشراق.

وبقطع النظر عن أصل كلمة "صوفي"[32] فإن التصوف سلوك في الحياة أو مضامين فكرية تغلب الجانب الروحي على الجانب المادي، وقد ظهر في المشرق الإسلامي في المائة الأولى والثانية للهجرة أين لقي معارضة كبيرة من طرف أهل السنة لغلو معتنقيه في الدين، وهذا أدى إلى العديد من المقاضاة.

ولم يكن المغرب العربي، بعيدا عن هذا التحول في تاريخ التصوف إذ يبدو أنه كان معروفا بهذا الإسم في القيروان زمن الإمام سحنون (ت 858هـ)، وتوليه قضاء إفريقية (847-854هـ)، حين استعان بالصوفية في رد بعض المظالم.

لئن بدأ التصوف في المائة الأولى والثانية للهجرة في شكل زهد وورع تمثل في أفراد معينين، فإنه لم يلبث أن صار مذهبا قائما على أركان، مدّعمة بنصوص مؤولة من القرآن والحديث يسمى "علم الباطن"، وقد تجسد في أبي

---

[32] - يرجع أصل كلمة "صوفية" إلى الصوف الذي كان لباس العباد والزهاد، ولكنهم " لم يختصوا بلبس الصوف، وهناك من قال.أنه من الصفا، (ولكن) اشتقاق الصوفي من الصفا بعيد في مقتضى اللغة" على حد قول القشيري.

للمزيد راجع: أبو القاسم عبد الكريم هوزان القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، القاهرة: مطبعة محمد علي صبيح، 1972، ص 117.

الغيض ثوبان المشهور بذي النون المصري (ت 958هـ)، ورابعة العدوية (ت 801هـ)، وهو منحى لقي مناهضة شديدة أدت إلى اتهام أبي الغيث المنصور الحلاج بالزندقة، وإلى قتله سنة 922هـ[33].

ظهرت فكرة الاعتقاد في الصوفية والتبرك بهم في المغرب الأوسط بناء على انبهار المجتمع بكراماتهم وقدراتهم الخارقة على كشف أسرار الناس، وإطلاعهم على أمورهم المستقبلية وتحقيق رغباتهم، وتفريج كروبهم عن البائسين، وجلب الشفاء للمرضى، وتخليصهم من الحكام الظلمة، وقطاع الطرق، وهداية الضالين، وإنقاذ المجتمع من أزمات الجفاف والمجاعات، وتحقيق أمنيات المتمنين[34].

نقل عن محمد السنوسي ما يلي: "إن النفوس في هذه الأزمة المتأخرة قد يمنعها من الاجتهاد في العمل الصالح ورياضة النفس عنها أن الولاية قد طوى بساطها فترى أن الاجتهاد لا فائدة فيه"[35].

لم يدع عبد الرحمن الأخضري أثناء حياته كرامة وكشف سر ولا إدراك علم الظاهر والباطن، وإنما كان عالما عاملا يؤلف المتون ويشرحها ويجمع الكتب ويفهمها ويجلس للدرس ويخرج التلاميذ، شأن العلماء الصالحين. غير أن المتأخرين في عصر أصبح العقل فيه يتقبل كل ناعقة، هم الذين نسبوا إليه

---

[33] – حول التصوف في الجزائر، أنظر: الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 هـ/ 12 و13م، الجزائر، دار الهدى للنشر والتوزيع، بدون تاريخ، ص 343.

[34] – حول الاعتقاد في الصوفية راجع المصادر التالية:

– يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، (تقديم وتحقيق: عبد الحميد حاجيات)، الجزائر: المكتبة الوطنية، الجزء الأول، 1985.

– أبو العباس احمد (الغبريني)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، (تحقيق: رابح بونار)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981.

[35] – أبو عبد الله محمد (ابن مريم)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (نشر محمد بن أبي شنب، تقديم: عبد الرحمن طالب)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص6.

الكرامات الكثيرة التي منها أنه صاحب دعوى قد ظهر وادعى أنه يطعم الناس التمر الرطب في غير وقته، فذهب إليه عبد الرحمن الأخضري ووضع يده على زنده فإذا التمر يصبح روث بهائم[36].

إلى عهد قريب ظل المهتمون من الباحثين في تاريخ التصوف للجزائر، لا يعيرون لكرامات الصوفية أدنى اعتبار من منظور اعتقادهم الجازم بأنها مجرد ظاهرة سلوكية مرتبطة بقوى غيبية، ومشاهدات سحرية وخرافية، يعتقدها السذج من الناس. بينما هي في واقع الأمر إفراز لظروف تاريخية صعبة سقطت بظلالها على النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمجتمع الجزائر.

أما من حيث مدلولها الفكري والمعنوي، فهي: "بنية أساسية في الفكر البشري كالبنية العقلانية بنمط مجتمعي وبأسلوب معيشي في الوجود، وممارسة معتقد ديني وتأكيد لهذا المعتقد"[37].

وقد روي أن الأرض قد طويت بجثمان عبد الرحمن الأخضري بعد وفاته في كحال فعاد به الناس إلى مسقط رأسه لدفنه. ومن الواضح أن مثل هذه الروايات الأسطورية لا تمت صلة بعبد الرحمن الأخضري، الذي تلقى ورد الطرقة الشاذلية والزروقية[38] على يد الشيخ محمد بن علي الخروبي. ولعله تأثر

---

[36]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 361.

[37]- إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، ط1، القاهرة:دار ابن سينا للنشر 1995، ص 132.

[38]- الزروقية فرع من الطريقة الشاذلية الأم والتي بلغت العشرين وهي تنسب إلى الشيخ أحمد زروق البرنوسي الفاسي دفين مصراته (ليبيا)، توفي عام 899هـ، أقام في بجاية وقسنطينة، وهو من العلماء المتصوفة، كان عالما وفقيها، يؤمن بالتأمل واستعمال الفكر، ترك عدة كتب أشهرها عقيدة المريد، وكان الأخضري من أنصار الزروقية.

للمزيد راجع: أحمد زروق البرنوسي، عدة المريد (تحقيق: إدريس عزوزي)، ط1، المغرب: مطبعة فضالة، 1419هـ/1988م.

أيضا بتعاليم عمر الوزان الذي يجمع بين العلم والعمل به وبين التصوف والفقه[39].

أثر عبد الرحمن الأخضري بعلمه أكثر مما أثر بتصوفه، فكتبه في العلوم كانت تدرس في المشرق والمغرب، وتوضع عليها الشروح والحواشي، ولم نعرف عنه أنه ألف في التصوف غير القدسية[40].

ولم يكن عبد الرحمن الأخضري يؤلف الأذكار والأوراد وغير من وسائل الدعاية للطرق الصوفية بل هاجم البدع ومن سماهم علماء السوء ودعا إلى العمل بالكتاب والسنة. ويبدو أن عقله كان عقلا رياضيا أكثر منع عقلا صوفيا يميل إلى الغموض والروحانية.

والمنظومة الأخضرية تبدأ كالتالي:

بسم الله الرحمن الرحيم ❋ إعلم بأن الجوهر الإنساني

يقول راجي رحمة المقتدر ❋ وهو الذي يدعونه الروحاني

فهذه الجواهر النفسية ❋ وباطن العلائق السنفسية

---

[39]- هو عمر بن محمد الكماد الأنصاري القسنطيني المشهور بالوزان، من أبرز علماء قسنطينة في القرن العاشر للهجرة، كرس حياته للتدريس، وقد تحول من الاهتمام بكتب التصوف إلى الاهتمام بكتب الحديث، وتنسب إليه الكرامات، وكان الوزان متمسكا بمهنة التدريس متباعدا عن الوظيفة السلطانية. بالإضافة إلى التأليف العزيز الوزان، فقد أسهم في إخراج التلاميذ من بينهم الأخضري، أنظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص.ص379-384.

[40]- الورتلاني صاحب الرحلة فقد خص بالشرح قصيدة لعبد الرحمن الأخضري في التصوف تعرف بالقدسية وفي قصيدة في آداب السلوك ونكران البدع. وقد سماها الورتلاني "الكواكب العرفانية والشوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية".

للمزيد حول القدسية راجع: عبد الرحمن الأخضري، الرسالة القدسية، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 2646، 49 ورقة.

بالأصل في الدائرة ❁ من شهرة رياسة القدسية ودعوى
دائرة التطهير ❁ ونزعة الشيطان وهي والكمال البلوى
رقي مقام الكشف ❁ وطهر القلب من والمشاهدة الأدغان
وفارق العادات في ❁ ولأخت الأعراف المثال بروعائها
مطوية في النفس طي الحب ❁ وسريان الماء في في أرجائها[41]

إنّ قراءة متأنية لأبيات القدسية تجعلنا نجزم بأن الأخضري كان من المحاربين للبدع وأصناف الشرك، ومما جاء في المنظومة ما يلي:

إذا رأيت رجلا ❁ والشرع نور الحق منه قد يطير بدا
أو فوق ماء البحر قد ❁ وانفجرت منه ينابيع يسير الهدى
ولم يكن متبعا للشرع ❁ وقال بعض أولياء الله
فإنه مستدرج ❁ خالق السالكين بطريق وبدعي الله
وأعلم بأن الخالق ❁ من ادعى مراتب الرباني الجمال

[41]- نفسه، ورقة 2 و6.

فـــارفضه إنما الفـــتى ❋ ولم يتخلى والزور دجـــال والهـــواء.

ليس له إنما التحقيق ❋ جـــاؤوا بمسط وضلال والكمـــال وقلا

فـــفـــر منـــه إنـــه ❋ أو يلج الجمل في سم شيـــطان الخياط

مخـــــادع مـــليس ❋ هذا زمان كثرت فيه خـــسوان البـــدع

وظـــلمات الزور ❋ قـــد تسلقوا والله قبل والبهتـــــان الســـبوم

تزخرفـــت في جملة ❋ وهاجت الطائفة الوطـــان الدجاجلة[42]

وفي موضع آخر يشير إلى الضلال والزيغ الذي أبداه بعض المتصوفة المخادعين، الذين اتبعوا مسلك الشيطان وهدموا قواعد الشرع الحنيف، ومما جاء في المنظومة:

واتبعوا مسالك الشيطان ❋ وجعلوا ملء البطون أصلهم

وهدموا قواعد الإسلام ❋ بنوا عليه امرهم وشبـــلهم

وعكسوا حقائق الأمور ❋ واشتغلـــوا بطاعة اللـــعين

ونصبوا حبائل الفجور ❋ وألعـــوا بالإنك والتـــبليس

وأولعوا بشهوات النفس ❋ تأسيـــا بشيخهم

---

[42] – نفسه، و 25و 26 و27.

إبليـــــس

آه على طريقة قد ذهبت ❋ آه علـــى طريق حـــزب الله

وهدمت أصولها وقلبت ❋ طريقة أفـــسدها الفجـــــار

وهاج إفك المدّعين فيها ❋ فكثروا وانتشروا وثـــاروا[43]

وفي ختام القدسية، بين الأخضري أنه متمسكا بقواعد الدين وأنه يتبع طريقة شيخه الزروق:

ولا أزال هكذا متمسكـــا ❋ فلم يبين صادق من مدّع[44]

قد ذهبوا بين العباد خاملين ❋ ففي كتاب شيخنا الزروق.

وهكذا ارتبط الفقه والعلم بزهد وتصوف عبد الرحمن الأخضري الذي كان عالما وعاملا في نفس الوقت، وكان كما قال أبي مدين شعيب: "ليس التصوف بالرهبانية وأكل الشعير والنخيل،وارتداء الثياب الخشن، وإنما بالعلم واليقين والصبر والهداية"[45]

---

[43]- نفسه، و43 و45.

[44]- نفسه، و48.

[45]- محمد بن محمد الأندلسي السراج، الحلل السندسية في أخبار التونسية، (تحقيق: محمد الحبيب الهيلة)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985، ج1، ص 835.